مجلّة الذخيرة للبحوث و الدراسات الإسلامية المجلد الأول العدد الأول (ديسمبر 2017 م)
مجلّة الذخيرة للبحوث و الدراسات الإسلامية
ISSN : 2588 – 1728 ردمد :
http://eddakhira.univ-ghardaia.dz

موقف ابن كثير من الصفات الخبرية من خلال تفسيره

د . منقذ عدنان محمد العيثاوي
عجمان – الإمارات العربية المتحدة
mongethadnan@yahoo.com

ملخص

تعد مسألة الصفات الخبرية من أكثر المسائل التي دار حولها الخلاف بين العلماء في مختلف العصور والأزمنة وبين مختلف التوجهات العقدية بل حتى داخل المدرسة الواحدة نجد الخلاف موجود ويتأرجح بين أكثر من موقف بل تعدى الأمر أي التأرجح حتى عند الشخصية الواحدة فنجد في بداية امره يجنح باتجاه معين ثم ما نلبث ان نلاحظ انه غير وسلك مسلكا آخر وهذا التغير إنما في حقيقة الامر يبنى على ما توافر لدى ذلك العالم من ادلة ترجح هذا المذهب على ذلك المذهب. هذا الاختلاف وهذا التغيير في المواقف يعطينا صورة واضحة على مدى الحرية التي كان يملكها العالم آنذك ويعطينا إشارة واضحة الى مدى عمق وصعوبة وخطورة هذه المسألة ومن هنا فإنه من المعلوم لدى الباحثين أن ابن كثير كان علامة فارقة في البحث والتأليف ولا تزال كتبه تعد مصادر رئيسية لا يمكن لطلبة العلم والباحثين الاستغناء عنها ومن هنا فإني وجدت في نفسي رغبة لدراسة راي الإمام ابن كثير في هذه المسألة من خلال تفسيره لعلي بذلك أقدم خدمة الى تراث هذا الامام الجليل ومن خلال موقفه أبرز حقيقة هذه المسألة والخلاف الذي جرى بين العلماء حولها من خلال نقل أقوالهم وأدلتهم على ما ذهبوا إليه من ترجيحاتهم أو ردهم على المخالفين لهم .

الكلمات المفتاحية: عقيدة ، تأويل ، إثبات ، تفويض.

Abstract

The matter that all scholars have quarreled about from the early centuries until now is the trait of Allah. Actually even in the same "school of doctrine" we found that disagreement exists. Although that matter exceeds the personalities we found the same scholar one day he was following one ideology and then he changed، that changing is based on proofs and evidence.That variation and alternation of the beliefs shows a clear idea of how much the freedom that they were had and gives us very obvious sign of how much difficult and serious the matter is. Hence، it is well known to all researchers that Ibn Katheer is one of the leading scholars in researching and writing in that matter. His books are still major sources to those researchers that can't be ignored.Hence I found in myself a desire to study the opinion of Ibn Katheer in this matter through his interpretations، hoping to give a duty and favor to the heritage of this scholar by showing his opinions which leads to the fact of this matter. And discuss that variation between the other scholars and the beliefs that they relay on .

مقدمة:

يعدّ الإمام ابن كثير رحمه الله من أشهر المفسرين الذين انتشر صيتهم في الأرجاء، وتتبع العلماء، والمفسرون تفسيره، وحظيت كتبه بالدراسة، والبحث، و الاهتمام من طلبة العلم على مر العصور لما تميز به من سهولة العبارة، وجزالتها، ودقتها، و وتوثيق تفسير السلف رحمهم الله لكتاب الله سبحانه، من خلال ذكر اقوالهم، وتفسيراتهم للآيات الكريمة، ودرجها داخل تفسيره رحمه الله، فحظي تبعا لذلك بالدراسة، والتمحيص من لدن طلبة العلم الشرعي، ومن هنا احببت ان ادلو بدلوي لأغرف من هذا العلم الأشم والمفسر الكبير ،والحافظ الشهير لعلي أتأسى بعلمه، وفهمه، وهمته فأحببت أن أبحث في موقفه من الصفات الخبرية وهي مسألة خاض فيها العلماء وبحثوها وألفوا فيها المؤلفات العظيمة، والجليلة لمنع الأفكار من الانزلاق فيما لا يحمد عقباها لأن البحث فيها مركب صعب قد يقع الإنسان – إن لم يعصمه الباري سبحانه – في منزلقات خطرة قد تفضي به إلى أمور تخدش العقيدة، والإيمان وحصل في هذه المسألة خلاف كبير بين العلماء، وطلبة العلم بل وصل الخلاف فيها في بعض الاحيان الى مرحلة لا تقبل ولا يمكن تصورها أن تحصل بين طلبة العلم وهذا ما دفعني إلى إماطة اللثام عن رأي الإمام ابن كثير رحمه الله وهو الذي يحظى بمنزلة عظيمة، ومكانة كبيرة عند العلماء بمختلف مشاربهم العلمية، وتوجهاتهم العقدية فحظى بالقبول عندهم، والتسليم لرأيه في مسائل الخلافية لعلي اقلل من الفجوة، والخلاف بين العلماء من خلال هذه الدراسة المتواضعة عن هذا الجبل الأشم، وهذا المفسر الكبير رحمه الله تعالى .

المكانة الكبيرة والعظيمة للإمام بن كثير رحمه الله كانت السبب الرئيسي، والدافع الأهم التي جعلتني أكتب عنه من خلال هذه المسألة الهامة، والعظيمة والتي لطالما أججت الخلاف بين العلماء في تجلية حقيقتها وإثبات كل طرف رأيه وتقويته بالأدلة الداعمة لصحة رأي ذلك الفريق والردّ على المخالف له، ولعل مثل هذه المسألة والتي ثار حولها خلاف طويل، وعريض على مدى التاريخ العلمي لهذه الأمة المباركة أقول، لعل تجلية وبيان رأي الإمام فيها تعطينا دليلا واضحا على مكانته وقوة حجته في

مسائل الخلاف و كيف كان يتعامل رحمه الله مع مثل هذه المسائل والتي اشتد الخلاف فيها بين علماء الأمة حتى وصل إلى مرحلة لا أبالغ إذا قلت: إنه كان لها الأثر الواضح في تمزيق الأمة وبثّ الفرقة بين علمائها .

اشتمل هذا البحث على مقدمة، وخاتمة بينت في المقدمة، سبب اختياري للبحث والدافع الذي دفعني لاختيار هذه الشخصية العظيمة، وبيان موقفها من الصفات الخبرية، من خلال تفسيرها للقرآن الكريم، وكيفية تعامله رحمه الله مع هذه المسألة الهامة، واختتمت البحث هذا بما توصلت إليه من نتائج تتعلق بموقفه، ورأيه رحمه الله تعالى من الصفات الخبرية .

وأدرجت بين المقدمة، والخاتمة جملة من المطالب، والتي كان في بدايتها تمهيد لهذه المطالب، والذي تحدثت به عن حياة الإمام، وعن شيوخه، وتلامذته بشكل مختصر من غير إخلال. استعرضت في هذا المطلب بعض أهم الوقفات في حياته المباركة ثم أعقبت ذلك التمهيد بالمطلب الأول، قدمت فيه تعريف الصفات الخبرية وماذا يعني هذا المصطلح عند العلماء، ومن أين جاءت التسمية هذه، ثم عرجت بعد هذا المطلب التعريفي بأصل التسمية إلى جملة من المطالب، والتي اندرج تحت كل مطلب الآيات الكريمة المتعلقة بالصفات الخبرية، ذاكرا موقف العلماء منها، ثم موقف إمامنا الجليل رحمه الله تعالى من هذه الآيات إن كان قد ذهب الى التأويل، أو مال إلى الإثبات في تلك الآيات الكريمات .

وجعلت في آخر البحث المصادر التي اعتمدت عليها مع ذكر المعلومات كاملة لكل مصدر اعتمدت فيه .

وختاما أقول مهما كتب الكاتب أو بذل جهده لخدمة علم هذا الجهبذ، والجبل الأشم فإنه لن يوفيه حقه فأن قصرت في بحثي هذا فإنه من نفسي، ومن عمل الشيطان وإن أصبت ، فإنه من توفيق الباري سبحانه وتعالى .

وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

تمهيد :

ترجمة مختصرة للإمام ابن كثير رحمه الله :

هو الإمام المفسر، الحافظ ، المحدث ، المؤرخ ، عماد الدين ابو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي المشهور بابن كثير رحمه الله.

ولد بقرية "مِجْدَل" من أعمال بصرى، وهي قرية أمه، سنة سبعمائة للهجرة أو بعدها بقليل [1].

نشأته :

نشأ الحافظ ابن كثير في بيت علم ودين، فأبوه عمر بن حفص بن كثير وكان خطيب قريته، وتوفى أبوه وعمره ثلاث سنوات أو نحوها [2]، وانتقلت الأسرة بعد موت والد ابن كثير إلى دمشق في سنة (707 هـ)، وخلف والده أخوه عبد الوهاب، فقد بذل جهدًا كبيرًا في رعاية هذه الأسرة بعد فقدها لوالدها، وعنه يقول الحافظ ابن كثير: "وقد كان لنا شقيقا، وبنا رفيقًا شفوقًا، وقد تأخرت وفاته إلى سنة (750 هـ) فاشتغلت على يديه في العلم فيسر الله منه ما تيسر وسهل منه ما تعسر" [3] .

شيوخه:

طلب العلم رحمه الله ، وصف ركبه طلبا للعلم منذ صغره أمام أكابر العلماء في عصره رحمهم الله تعالى فأخذ العلم عن عشرات العلماء الذين عاصرهم مما ساهم في صقل موهبته العلمية ، وتوجيهها التوجيه السليم والتي أنتجت هذا العلم الكبير ،

1- ينظر الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني 374/1 ، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي 231/6 .

2- ينظر البداية والنهاية لابن كثير 31/14-32 .

3- المصدر السابق 32/14 .

والجبل الأشم ، ولعل من أشهرهم ، شيخ الإسلام ابن تيمية [1] ، والحافظ المزي [2] ، والحافظ الإمام الذهبي[3] ، والإمام ابو العباس أحمد الحجار ابن الشحنة [4] وغيرهم الكثر ، ممن تتلمذ على يديهم ، وصقل علمه على يديهم ونهل منهم العلم والمعرفة .[5]

تلاميذه :

تتلمذ على يديه جمهرة من طلبة العلم الذين غرفوا من علمه فاستفادوا ، وأفادوا ونشروا العلم الشريف الذي أخذوه عن الإمام ابن كثير رحمه الله ومن أشهرهم رحمهم الله :

الحافظ شهاب الدين الشافعي، رحمه الله [6].

الإمام الزركشي، رحمه الله [1].

1- تتلمذ على يديه وتأثر به في كثير من طروحاته رحمه الله وهو شيخ الاسلام ابو العباس تقي الدين اشهر من ان اعرف به ينظر البداية والنهاية لابن كثير 14/135-140 ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي 9/271-272 .

2- جمال الدين ابو الحجاج يوسف بن الزكي عبدالرحمن بن يوسف لازمه الامام ابن كثير حتى زوجه بنته زينب ينظر الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني 5/323 ، البداية والنهاية لابن كثير 14/191-192 .

3- الحافظ الإمام شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي ولد 673 وتوفي 748 ينظر البداية والنهاية لابن كثير 14/225 ، البدر الطالع للشوكاني 2/111 .

4- احمد الحجار المشهور بابن الشحنة شهاب الدين احمد بن ابي طالب بن نعمة ولد 623 وتوفي 730 للهجرة ينظر البداية والنهاية لابن كثير 14/150 ، الدرر الكامنة لابن حجر 1/152 ، شذرات الذهب ابن العماد الحنبلي 6/93 .

5- ينظر لمزيد من التفصيل البداية والنهاية لابن كثير 14/150 وايضا البدر الطالع للشوكاني 2/111 ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي 10/76 ، الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني 5/233 .

6- احمد بن محمد بن محمد بن احمد الحريري الشافعي ولد سنة 738 للهجرة وتوفي 813 للهجرة ينظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي 7/100

الحافظ العراقي، رحمه الله [2].

ابنه محمد بن إسماعيل بن كثير، رحمه الله [3].

الإمام ابن أبي العز الحنفي، رحمه الله [4].

مؤلفاته :

للإمام ابن كثير رحمه مؤلفات كثيرة طبقت شهرتها الآفاق ، وفي شتى أصناف ومجالات العلوم الشرعية ، فلم يكن قاصرا في التأليف في مجال دون آخر ، بل ألف في جملة من العلوم الشرعية ومن اشهر مؤلفاته رحمه الله تعالى :

- تفسير القرآن العظيم ، وهو أجل مؤلفاته فقد تلقته الأمة بالقبول ويعد من أصح كتب تفسير القرآن الكريم وأفضلها .

- سيرة عمر بن عبد العزيز .

- البداية والنهاية ، وهي موسوعة ضخمة تضم التأريخ منذ بدأ الخلق إلى القرن الثامن الهجري حيث جزء النهاية مفقود.

- التكميل في الجرح والتعديل ومعرفة الثقاة والضعفاء والمجاهيل.

1- هو بدر الدين ابو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي ولد سنة 745 للهجرة وتوفي 794 للهجرة ينظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي 335/6 ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي 134/12 .

2- هو زين الدين عبد الرحمن بن الحسين بن ابي بكر ولد سنة 725 للهجرة وتوفي 806 للهجرة ينظر انباء الغمر لابن حجر العسقلاني 275/2-276 ، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي 55/7-56 .

3- ولد سنة 765 للهجرة وتوفي سنة 801 وكان يعرف بابن كثير كأبيه ينظر الضوء اللامع لأهل القرن التاسع شمس الدين السخاوي 243/1 طبعة دار الحياة بيروت وينظر انباء الغمر 58/2 .

4- صَدرُ الدين ، أبو الحسن عليُّ بن علاءِ الدين عليِّ بن شمس الدين الأذرعي الأصلِ ، الدمشقي الصالحيَّ الحنفي ، المعروف بابن أبي العز الحنفي ولد 731 للهجرة وتوفي 792 للهجرة ينظر مقدمة شرح الطحاوية .

- الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث وهو اختصار لمقدمة ابن صلاح.

- رسالة في العقائد .

- شرحه للبخاري ، وهو مفقود .

وغير ذلك العشرات من المؤلفات المطبوع منها والمفقود [1] .

وفاته رحمه الله تعالى :

توفي إسماعيل بن كثير في يوم الخميس 26 شعبان سنة 774 هـ في دمشق ، عن أربع وسبعين سنة ، وكان قد فقد بصره في آخر حياته، وقد ذكر ابن ناصر الدين أنه "كانت له جنازة حافلة مشهودة، ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية [2]

المطلب الأول : الصفات الخبرية :

سميت بالخبرية لأن طريقة إثباتها الخبر[3] من آية كريمة ، أو حديث شريف ورد عن حضرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، و لا دخل للعقل في إثباتها أو نفيها ، يقول الإمام البيهقي رحمه الله: "وأما السمعي فهو ما كان طريق إثباته الكتاب والسنة فقط كالوجه واليدين والعين"[4]. ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله بمثل ذلك فيقول: "وما صرح الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم بنفيه عنه تعالى يجب نفيه ومالم يصرح الشرع لا بنفيه ولا بإثباته يجب استفسار قائله فإن أراد به معنى صحيحا موافقا لما أثبته الشرع قبل وإلا وجب رده".

1- ينظر تحفة الطالب 35-36 لابن كثير .

2- ينظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي 231/6 ، الدرر الكامنة لابن حجر 374/1 .

3 - الخبر عند العلماء هو نفسه السمع فاذا قلنا الصفات الخبرية فان هذا يعني انها وردت عن طريق السمع فالخبر والسمع لهما نفس المعنى .

4- الاعتقاد للبيهقي 71 وينظر الصفات الخبرية لمحمد عياش الكبيسي 51 .

فلما كان الخبر الصادق الثابت الورود هو طريق إثباتها تعارف واتفق أهل العلم على تسميتها بالصفات الخبرية وهذه الصفات يشير ظاهرها إلى مشابهة الخالق للمخلوق وتشعر بإضافة النقص الى الباري سبحانه تنزه عن النقائص إلا أن العلماء اتفقوا بمختلف مشاربهم الى استحالة ذلك أي استحالة مشابهة الخالق جل وعلا للمخلوق ونفي مشابهة الخلق عنه فانه لا يمكن تصور ذلك لا عقلا و لا شرعا ومن هنا فإن للعلماء على مختلف مشاربهم اكثر من موقف من هذه الصفات فمنهم من مال الى التأويل صيانة لجناب التوحيد ، وابتعادا عن مشابهة الخالق للمخلوق ، وفرارا من لوازم الأخذ بظاهر هذه النصوص الكريمة وذلك لأن اللغة العربية تحتمل مثل هذا الرأي وهو رأي غالب الأشاعرة والماتريدية وقد فصلوا هذا الرأي في كتبهم واجدني غير ملزم بالتفصيل في مذهبهم وذكر أصولهم وأدلتهم في صحة ما ذهبوا إليه لأن الباحثين اشبعوا هذا البحث بحثا ودرسوه من كل نواحيه وزواياه [1] وذهب فريق آخر إلى إثباتها ، وهؤلاء أثبتوا هذه الصفات وامروها كما وردت من غير تأويل واستندوا بموقفهم هذا على موقف جمهرة من السلف الذين كانوا يؤمنون بها كما وردت مع نفي المشابهة مع المخلوق فالإيمان بها واثباتها ، لا يعني مطلقا مشابهتها للخالق سبحانه و لا يعني ايضا إثبات ما يلزم من اللوازم ، إذا ما اثبتت هذه النصوص وفريق اخر سمي بالمفوضة ، الذين فوضوا هذه النصوص الى الباري ولم يخوضوا لا في كيفيتها ولا في تأويلها هذه أهم ثلاث مدارس ظهرت بين المتكلمين ومن كتب في العقيدة على مر تأريخ هذا العلم المبارك [2].

1- ينظر للمزيد من التفصيل عن موقف الاشاعرة والماتريدية ومن جنح للتأويل او لم يجنح للتأويل كتاب الدكتور محمد عياش الموسوم الصفات الخبرية عند اهل السنة والجماعة ففيه تفصيل جيد لهذه المذاهب الثلاثة .

2- ينظر لمزيد من التفصيل علاقة الاثبات بالتفويض بصفات رب العالمين وينظر أيضا موقف ابن تيمية من الأشاعرة لرضا نعسان .

المطلب الثاني : آيات المكر و السخرية والاستهزاء والخداع :

ورد في القرآن الكريم ألفاظ أضافها الباري إلى نفسه وهي :

﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾. [آل عمران: 54].

﴿فلله المكر جميعا﴾. [الرعد: 42] .

﴿الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾. [البقرة: 15].

﴿فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب عظيم ﴾. [التوبة: 79].

﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾. [النساء: 142].

يرى من ذهب إلى الإثبات وعدم التأويل أن هذه الألفاظ ، والتي وردت في القرآن الكريم وهي ليست من الصفات التي تنسب للباري ، بل هي من الأفعال التي تنسب للباري سبحانه ، وقد عاملها المفسرون والعلماء الذين اثبتوها ، معاملة واحدة وعدوها من الأفعال[1] التي تنسب للباري سبحانه ، وأدخلتها من ضمن البحث لأنها أيضا تشعر بإضافة النقص للباري سبحانه فهي وإن لم تكن من الصفات الخبرية ، إلا أنها وردت في القران الكريم ، فأحببت أن أبين موقف الإمام ابن كثير رحمه الله منها .

موقفه رحمه الله من هذه الآيات :

أثبت المكر لله بالكافرين ففي تفسيره للآية الكريمة ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾. [آل عمران: 54]. قال رحمه الله: " وَكَانَ هَذَا مِنْ مَكْرِ اللَّهِ بِهِمْ، فَإِنَّهُ نَجَّى نَبِيَّهُ وَرَفَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ يَعْمَهُونَ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ قَدْ ظَفِرُوا بِطَلَبَتِهِمْ، وَأَسْكَنَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ قَسْوَةً وَعِنَادًا لِلْحَقِّ مُلَازِمًا لَهُمْ، وَأَوْرَثَهُمْ ذِلَّةً لَا تُفَارِقُهُمْ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ"[2] فنجده هنا أثبت مكر الله بالكافرين ولم يجنح الى التفصيل ، أو بيان وإنما ذكرها مجملة من غير تفصيل .

1- ينظر الصفات الخبرية لمحمد عياش الكبيسي 38 .

2- تفسير ابن كثير 2/ 39 .

وعند تفسيره لاستهزاء الباري سبحانه وتعالى بالكفار، قال رحمه الله: "وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ إِخْبَارٌ من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عُقُوبَةَ الْخِدَاعِ، فَأَخْرَجَ خَبَرَهُ عَنْ جَزَائِهِ إِيَّاهُمْ وَعِقَابِهِ لَهُمْ مَخْرَجَ خَبَرَهُ عَنْ فِعْلِهِمُ الَّذِي عَلَيْهِ اسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ فِي اللَّفْظِ وَإِنِ اخْتَلَفَ الْمَعْنَيَانِ كَمَا قَالَ تَعَالَى وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ"[1] ففسر هنا الاستهزاء أن الرب تبارك وتعالى سيعاقبهم عقوبة الخداع جزاء استهزائهم .

إلا أنه رحمه الله وعند تفسيره للآية الكريمة ، ينزه الباري سبحانه عن الخداع (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) النساء 142 عقب ، وقال رحمه الله (ولا شك أن الله لَا يُخَادَعُ، فَإِنَّهُ الْعَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لِجَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْرَهُمْ كَمَا رَاجَ عِنْدَ النَّاس وَجَرَتْ عَلَيْهِمْ أحكام الشريعة ظاهرا، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة وأن أمرهم يروج عنده كما أخبر تعالى عنهم أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْلِفُونَ لَهُ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الِاسْتِقَامَةِ وَالسَّدَادِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لهم عنده، كَمَا قَالَ تَعَالَى: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ [المجادلة: 18] ، وقوله: هُوَ خادِعُهُمْ أَيْ هُوَ الَّذِي يَسْتَدْرِجُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَيَخْذُلُهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ فِي الدنيا، وكذلك يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[2].

المطلب الثالث : الإحاطة والسعة :

ورد في القرآن الكريم ألفاظ ، تصف الباري سبحانه وتعالى بأنه محيط ، وواسع ومن هذه الآيات الكريمة قوله تعالى :

﴿والله محيط بالكافرين﴾. [البقرة:19].

﴿ وكان الله واسعا حكيما ﴾. [النساء: 130].

﴿إنه بكل شيء محيط ﴾. [فصلت: 54].

﴿إن ربي بما تعملون محيط ﴾. [هود: 92]

1- تفسير ابن كثير 94/1 .

2- المصدر السابق 387/2 .

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾. [البروج: 17- 20].

ذهب أغلب العلماء إلى تأويلها إلى معان أخرى ، تليق به سبحانه وتعالى وعدم عدها من الصفات ، ومنهم الإمام الطحاوي[1] في عقيدته يقول رحمه الله تعالى: "وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك وإن المخلوقات داخل ذاته المقدسة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وإنما المراد إحاطة عظمته وسعة علمه وقدرته"[2].

بل نقل فضيلة الدكتور محسن عبد الحميد الإجماع من عصر الصحابة رضي الله عنهم إلى يومنا هذا ، على تأويل وتفسير هذه الآيات بدليل القران الكريم الذي يفسر بعضه بعضا ، والعقل يؤيد تأويلها ، ويحيل الإحاطة المادية ، ونقل تفسير هذه الآيات بمعان تليق بذاته سبحانه وتعالى [3] .

إلا أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، أثبت الإحاطة على أنها صفة للباري سبحانه وتعالى وألف رسالة في هذه الصفة وقد ربط بين الآيات الكريمة التي تتحدث عن الإحاطة والسعة ، السالفة الذكر و الآيات الكريمة التي تتحدث عن قبض الله سبحانه وتعالى للسموات والارض بيديه سبحانه وتعالى ، فليس في إثباتها ما يخالف الشرع والعقل ، وأيده في رأيه تلميذه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ولا بد من الإشارة إلى أن شيخ الإسلام لما اثبت الاحاطة و عدها من الصفات إلا أنه أكد في مواضع كثيرة ، أنه لما يثبت الصفات ولا يميل الى التأويل إلا أنه في نفس الوقت يؤكد على وجوب مخالفة وعدم مشابهة صفات الباري لصفات المخلوق .

1- هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي ، نسبة إلى (طحا) وهي قرية من قرى مصر ، ولد سنة 229 للهجرة تفقه على مذهب الإمام الشافعي ثم انتقل إلى مذهب الإمام أبي حنيفة . اخذ علمه على كثير من الشيوخ ، وأفاد منهم ، وقد بلغ عددهم على ثلاثمائة شيخ توفي رحمه سنة 321 للهجرة . بمصر انظر ترجمته في طبقات الشيرازي 218/8 ، الأنساب للسمعاني 8 / 218 ، تاريخ ابن عساكر 2 /189-_190 .

2- شرح الطحاوية 374/2 وينظر الصفات الخبرية لمحمد عياش 211 .

3- ينظر ايات الصفات بين المؤولة والمفوضة للدكتور محسن عبد الحميد 19 وايضا ينظر الصفات الخبرية لمحمد عياش 211 .

رأي الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى :

فسر ابن كثير الإحاطة بالقدرة فإن الله محيط بقدرته والناس تحت مشيئته وإرادته بهذا يكون رحمه الله ، هنا ذهب الى التأويل مخالفا بذلك ، رأي شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، ومقتربا من جمهور المفسرين الذين فسروا واولوا الإحاطة بتفاسير وتأويلات كما مر بنا آنفا .

فيقول رحمه تعالى ، ما نصه:"وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ أَيْ وَلَا يُجْدِي عَنْهُمْ حَذَرُهُمْ شَيْئًا لِأَنَّ اللَّهَ محيط بِقُدْرَتِهِ وَهُمْ تَحْتَ مَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ كَمَا قَالَ: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ [البروج: 17- 20] البقرة 19"[1] ففسر رحمه تعالى الإحاطة بالقدرة .

وفسر في موقع آخر رحمه الله ، الإحاطة بالعلم فيقول رحمه ما نصه حينما يفسر قوله تعالى: ﴿أن ربي بما تعملون محيط ﴾. [هود: 92] .

قال رحمه الله: "إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾؛ أَيْ هُوَ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ وَسَيَجْزِيكُمْ بها"[2] .

وكذا الحال بالنسبة للسعة ، فإنه رحمه الله تعالى مال إلى رأي الجمهور في تفسيرها و تأويلها ، وخالف بذلك من اثبتها ممن سار على نفس رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في إثبات هذه الصفات ، ومنع تأويلها وإجرائها على ظاهرها كما وردت في النصوص مع منع المشابهة مع المخلوقين بدلالة النص والعقل والفطرة.

ففسر رحمه تعالى في قوله تعالى ﴿وَكانَ اللَّهُ واسِعاً حَكِيماً ﴾. [النساء: 130]؛ فقال ما نصه رحمه الله تعالى: "أَيْ وَاسْعَ الْفَضْلِ عَظِيمَ الْمَنِّ حكيما في جميع أفعاله وأقداره وشرعه.) [3] هنا ايضا نراه جانب موقف شيخ الاسلام وذهب الى التأويل بل نجده في آية كريمة أخرى فيها ذكر الإحاطة ، أنه أوّلها وفسرها بالقهر فحينما يصل

1- تفسير ابن كثير 100/1 .
2- المصدر السابق 298/4 .
3- تفسير ابن كثير 282/2 .

بالتفسير إلى قوله تعالى: ﴿ إنه بكل شيء محيط ﴾ [فصلت: 54] يقول رحمه تعالى ما نصه: "أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ أَيِ الْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَحْتَ قَهْرِهِ وَفِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ طَيِّ عِلْمِهِ وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا كُلِّهَا بِحُكْمِهِ فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ لا إله إلا هو" [1] .

فنجده في هذه المسالة يأتي موقفه متناسقا ، ومتناغما مع رأي الجمهور في تفسير وتأويل الإحاطة والسعة بالعلم ، أو قهر العباد تحت ارادته كما مر سابقا بنا .

ولعل هذا مرده إلى أن ابن كثير رحمه لم يكن يهتم بالمسائل الخلافية في العقائد بقدر اهتمامه بتفسير القرآن ، وتأثره بمن سبقه من المفسرين والذين أيضا كانوا يذهبون إلى نفس ما ذهب إليه ابن كثير في تأويل هذه الآيات الكريمة .

المطلب الرابع : النصوص الموهمة انه سبحانه حال في السماء :

وردت في القرآن الكريم ألفاظ و نصوص كثيرة يوهم ظاهرها أن الباري سبحانه وتعالى حال في السماء وورد مثل ذلك أيضا في السنة النبوية إلا أني سأذكر إلى النصوص القرآنية الكريمة فقط لبيان موقف ابن كثير منها إلا إذا هو رحمه الله تعالى ذكر نصا نبويا فإني سأشير إلى هذا النص النبوي الشريف وإلا فلن أذكر النصوص النبوية المتعلقة بهذه المسألة .

وهذه النصوص الكريمة قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾. [الأنعام 3].

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ ﴾. [الزُّخْرُفِ 84].

﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾. [الملك 17/16] .

نقل الإمام النووي رحمه الله عن القاضي عياض رحمه الله تعالى قوله: "لا خلاف بين المسلمين قاطبة فقيههم ومحدثهم ومتكلمهم و نظارهم ومقلدهم أن الظواهر الواردة بذكر الله تعالى في السماء كقوله تعالى: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم

1- المصدر السابق 172/7 .

الارض﴾ ونحوه ليست على ظاهرها بل متأولة عند جميعهم، فمن قال بإثبات جهة فوق من غير تحديد ولا تكييف من المحدثين والفقهاء والمتكلمين تأول في السماء أي على السماء ومن قال من دهماء النظار والمتكلمين وأصحاب التنزيه بنفي الحد واستحالة الجهة في حقه سبحانه وتعالى تأوّلوها تأويلات بحسب مقتضاها"[1]

وذهب أهل الإثبات الذين أثبتوا الصفات الخبرية واثبتوا صفة العلو له سبحانه وأنه مستو على عرشه سبحانه ليس فوقه شيء ولم يجنحوا إلى التأويل إلا أنهم أوّلوا هذه الآيات الكريمة بمعنى على ففسروا في بمعنى على فيقول الإمام البيهقي [2] وهو من أئمة الإثبات قال ما نصه: "و معنى قوله في هذه الأخبار (من في السماء) أي فوق السماء على العرش"[3]. وفصل شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الكلام في كتبه[4] .

أما أهل التأويل ، الذين هم أصلا أولوا الجهة ، والمكان ، والفوقية ، ونفوها عن الباري سبحانه وتعالى ، فإن أغلبهم ذهب إلى أن المقصود بالذي في السماء هو غير ذات الله سبحانه ، ففي النصوص الكريمة هناك حذف ، واختصار فمنهم من أولها بالقدرة ، أو سلطان عرشه ، أو ملكوته في السموات أو حكمه أو أمره [5] .

موقف الإمام ابن كثير رحمه الله :

أما ابن كثير رحمه الله فانه قال ما نصه: "قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ اخْتَلَفَ مُفَسِّرُو هذه الآية على

1- صحيح مسلم بشرح النووي 5/ 124-125

2- هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي الخرساني. ولد عام 384 للهجرةوتوفي في سنة 458 للهجرة وللمزيد ينظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي 3/3 ، شذرات الذهب لابن العماد 305/3 ، وفيات الأعيان لابن الخلكان 58/1

3- الاسماء والصفات للبيهقي 424 .

4- ينظر الرسالة التدمرية لابن تيمية 57 .

5- ينظر تفسير النسفي 4/ 276 ،الشامل للجويني 556 ، الصفات الخبرية محمد عياش 217 .

أقوال، بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية [1] الأول القائلين، تعالى عن قولهم علوا كبيرا، بأنه فِي كُلِّ مَكَانٍ، حَيْثُ حَمَلُوا الْآيَةَ عَلَى ذلك، فالأصح من الْأَقْوَالِ: أَنَّهُ الْمَدْعُوُّ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ، أَيْ يَعْبُدُهُ وَيُوَحِّدُهُ وَيُقِرُّ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَيُسَمُّونَهُ اللَّهَ وَيَدْعُونَهُ رَغَبًا وَرَهَبًا، إِلَّا مَنْ كَفَرَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ [الزُّخْرُفِ: 84] أَيْ هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ خَبَرًا أَوْ حَالًا [وَالْقَوْلُ الثَّانِي] أَنَّ المراد أنه اللَّهَ الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، مِنْ سِرٍّ وَجَهْرٍ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ يَعْلَمُ، مُتَعَلِّقًا بِقَوْلِهِ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ تَقْدِيرُهُ، وَهُوَ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ، فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ،]وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ] أَنَّ قَوْلَهُ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَقْفٌ تَامٌّ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْخَبَرَ، فَقَالَ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَقَوْلُهُ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ أي جميع أعمالكم خيرها وشرها"[2].

وقال عند قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ﴾ الزُّخْرُفِ 84 . قال ما نصه رحمه الله: "وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ أَيْ هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَإِلَهُ من في الأرض يعبده أهلها وَكُلُّهُمْ خَاضِعُونَ لَهُ أَذِلَّاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ وهذه الآية كقوله سبحانه وتعالى: وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ [الْأَنْعَامِ: 3] أَيْ هُوَ الْمَدْعُوُّ اللَّهُ فِي السموات والأرض وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما أَيْ هُوَ خَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا، وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا بِلَا مُدَافَعَةٍ وَلَا مُمَانَعَةٍ، فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْوَلَدِ

1- الجهمية هم ترجع في نسبتها إلى جهم بن صفوان الترمذي الجهم بن صفوان الخراساني ، ظهر في المائة الثانية من الهجرة سنة 2هـ،ويكني بأبي محرز الذي كان له ولأتباعه صولات وجولات في نشر الضلالات وأول من ابتدع القول بخلق القرآن وتعطيل الله عن صفاته ولمزيد من التفصيل ينظر الفرق بين الفرق البغدادي 759 .

2- تفسير ابن كثير 216/3 .

وَتَبَارَكَ، أَيِ اسْتَقَرَّ لَهُ السَّلَامَةُ مِنَ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ، لِأَنَّهُ الرَّبُّ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ الْمَالِكُ لِلْأَشْيَاءِ الَّذِي بِيَدِهِ أَزِمَّةُ الْأُمُورِ نَقْضًا وَإِبْرَامًا" [1].

فنلاحظ أن الإمام رحمه الله لم يخرج عن الإجماع الذي اشار إليه الإمام النووي نقلا عن القاضي عياض رحمهم الله ، فهو اولا ، انكر راي الجهمية القائل بأن الرب تبارك وتعالى موجود في كل مكان ، وهذا الرأي مردود شرعا وعقلا ، ولضعف الحجة فإن الإمام رحمه الله لم يتطرق إليهم ، وإنما جاء رده عليهم مجملا ، وغير مفصل ، وذلك لأن رأيهم لا يمكن أن يصمد أمام الأدلة والبراهين ، التي يسوقها من انكر عليهم قولهم ، فأولها أن المقصود من الآيات الكريمة ، أن الله يعبده ويقر له بالوحدانية من في السموات والأرض ، أو هو رب من في السموات ومن في الأرض ، فجاء موقفه هنا قريبا من موقف المتأولة مبتعدا بعض الشيء عن مذهب شيخه وأستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [2].

الاستواء :

وردت لفظة الاستواء ، في أكثر من آية كريمة ، وفي أكثر من موضع في القرآن الكريم :

﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾. [الأعراف: 54].

﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾. [يونس 3].

﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش﴾. [الرعد:2]

﴿الرحمن على العرش استوى﴾. [طه: 5].

1- المصدر السابق 223/7 .

2_ لمزيد من التفصيل ينظر رأي شيخ الاسلام في درء التعارض 131/7-132 وينظر ايضا : المجموع لابن تيمية 407/16 .

وغير ذلك من الآيات الكريمة التي ذكرت الاستواء .

ذهب أهل الإثبات إلى إثبات هذه الصفة ، وعدها صفة للباري سبحانه وتعالى جريا وتبعا لمذهبهم ، الذي يؤمن بكل الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة ، المتعلقة بالصفات الخبرية ، فأثبتوا الاستواء ، الذي يليق بالباري سبحانه وتعالى من غير تكييف ، ولا تشبيه وإنما أمرّوها كما وردت من غير تأويل ، فيقول الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: "إن الاستواء و الكون على ما نطق به الكتاب والسنة من دون تكييف و لا تكلف ، ولا قيل ولا قال ، ولا قصور شيء من المقال ، فمن جاوز هذا المقدار بإفراط أو تفريط ، فهو غير مقتد بالسلف ولا واقف في طريق النجاة"[1].

فنفى أهل الإثبات، أن يكون معنى الاستواء ، هو الاستيلاء ، أو القهر، أو الغلبة ، بل الاستواء عندهم يعني العلو، والارتفاع [2] .

فهم آمنوا باستوائه تبارك وتعالى ، على العرش كما اخبر عن نفسه سبحانه ، ولم يتأولوها بما يصرفها عن ظاهرها ، وبنفس الوقت ، فإنهم نفوا أي لازم يلزم من قولهم هذا كالمشابهة أو الملامسة وإنما استوى سبحانه بلا كيف وعلى الوجه الذي يليق به ، مع تنزيهه سبحانه عن ما لا يجوز بحقه من اللوازم ، لأن هذه اللوازم إنما تلزم متى ما كان المتصف بالاستواء جسما ، أما ما ليس بجسم فغير لازمة له .

وذهب فريق آخر من المتكلمين ، إلى تأويل الاستواء ، وصرفه عن ظاهره حيث ذهبوا الى تأويل الاستواء ، بالاستيلاء أو القهر أو الغلبة أو الملك [3] .

ويقول الإمام الجويني رحمه الله تعالى[1] في رده على من رفض التأويل: "فإن قيل: هلا أجريتم الآية على ظاهرها من غير تعرض للتأويل، مصيرا إلى أنها من المتشابهات

1- التحف في مذهب السلف للشوكاني 12 وينظر فتح القدير للشوكاني 211/2 ، اراء الشوكاني 233-236 .

2- ينظر معالم التنزيل للقاسمي 60/1 ، جامع البيان للطبري 276/1 ، ابن تيمية وقضية التاويل الجلنيد 77 .

3- ينظر غاية المرام الامدي 141 ، الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي 38-39 .

التي لا يعلم تأويلها إلا الله، قلنا: إن رام السائل إجراء الاستواء على ما ينبي عنه في ظاهر اللسان، و هو الاستقرار، فهو التزام للتجسيم، و إن تشكك في ذلك كان في حكم المصمم على اعتقاد التجسيم، و إن قطع باستحالة الاستقرار، فقد زال الظاهر، والذي دعا إليه من إجراء الآية على ظاهرها لم يستقم له، وإذا أزيل الظاهر قطعا فلا بد بعده في حمل الآية على محمل مستقيم في العقول مستقر في موجب الشرع. و الإعراض عن التأويل حذرا من مواقعة محذور في الاعتقاد يجر إلى اللبس والإيهام و استزلال العوام، وتطريق الشبهات إلى أصول الدين، وتعريض بعض كتاب الله تعالى لرجم الظنون" [2].

فذهب أهل التأويل إلى تأويل الاستواء ، درءا للتشبيه ، ومنعا للتجسيم ، وأولوها بمعاني كثيرة جدا كما أسلفت سابقا [3] .

موقف الامام ابن كثير :

في هذه الصفة نلحظ ، أن الإمام ابن كثير أبرز رأيه في هذه الصفة ، والذي يتابع به شيخ الإسلام رحمه الله ، فعند تفسيره لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾. [الأعراف: 54] قال رحمه الله ما نصه: "وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ فَلِلنَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَقَالَاتٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا ليس هذا موضع بسطها وإنما نسلك فِي هَذَا الْمَقَامِ مَذْهَبُ السَّلَفِ الصَّالِحِ مَالِكٌ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ بْنُ

1- أبو المعالي عبد الملك ابن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيوية الطائي السنسبي وقد أطلق عليه لقب إمام الحرمين لمجاورته وتدريسه في الحرمين الشريفين ولد عام 419 للهجرة وتوفي 478 للهجرة امام وحجة وفقيه متبحر ولمزيد من التفصيل ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ، 68/18 ،.،: طبقات الشافعية الاسنوي ، ص 197.

2- الارشاد للجويني 22-23 .

3- لمزيد من التفصيل ينظر مفاتيح الغيب للرازي (7/ 153) وانظر كلامه في المسألة العاشرة :"في أنه سبحانه وتعالى منزه عن المكان والجهة والحيز" من كتابه المسائل الخمسون في أصول الدين (ص:38 وما بعدها) ، أبكار الأفكار في أصول الدين للإمام سيف الدين الآمدي1/ 461-463) .

رَاهَوَيْهِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَالظَّاهِرُ الْمُتَبَادَرُ إِلَى أَذْهَانِ الْمُشَبِّهِينَ مَنْفِيٌّ عَنِ اللَّهِ لا يشبهه شيء من خلقه ولَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ بَلِ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الْأَئِمَّةُ مِنْهُمْ نُعَيْمُ بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال من شبه الله بخلقه كَفَرَ وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولَهُ تَشْبِيهٌ فَمَنْ أَثْبَتَ لِلَّهِ تَعَالَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِ الله وَنَفَى عَنِ اللَّهِ تَعَالَى النَّقَائِصَ فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَى".[1].

وعند قوله سبحانه: ﴿الرحمن على العرش استوى) [طه: 5]. قال ما نصه: "الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ بما أغنى عن إعادته أَيْضًا، وَأَنَّ الْمَسْلَكَ الْأَسْلَمَ فِي ذَلِكَ طَرِيقَةُ السَّلَفِ إِمْرَارُ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْرِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَمْثِيلٍ﴾ [2]

فنجده واضحا ومباشرا ، في رفضه تأويل هذه الصفة ، وإنما جاء موقفه متماشيا مع موقف أهل الإثبات ، مع أنه لم يتكلم بشكل واف عن هذه الآية الكريمة ، ولم يفصل فيها ، مثل ما فعل شيخه ، شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وإنما ذكرها بشكل مختصر ، ونقل عن السلف إمرارهم للآيات الكريمة ، من غير أن يعتقد بلوازمها ، أو ما يلزم عنها ، من إثبات الاستواء ، وذلك لأن هذه اللوازم ابتداء منفية، وغير معترف بها ، فلا تلزم من اعتقد برأيهم ، وأخذ بكلامهم في إثبات هذه الصفات ولم يجنح الى التأويل .

1- تفسير ابن كثير 3/ 383 .

2- المصدر السابق 5/ 241 .

المطلب الخامس : الصفات الموهمة للتجسيم

الوجه :

وردت لفظة الوجه في أكثر من موضع في القرآن الكريم :

﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾. [البقرة: 115].

﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾. [الرحمن: 27].

﴿ كل شيء هالك إلا وجه ﴾. [القصص: 88] .

لعل من أهم الأسباب التي أججت الخلاف بين العلماء ، في قبول التأويل أو رفضه ، هو الخوف من الوقوع في طامة تجسيم الباري سبحانه ، وما يجره هذا الوقوع ، من مخالفة صريح القرآن الكريم: ﴿ليس كمثله شيء ...﴾ [الشورى: 11] فمن جنح إلى التأويل ، جنح إليه للفرار من التجسيم ، وما يلزم عنه إذا اثبتت هذه النصوص ، والطرف الثاني الذي لا أقول رفض التأويل جملة وتفصيلا ، وإنما اشترطوا للتأويل ، شروطا لقبوله وتمييزه عن التأويل الفاسد[1] فاثبتوا هذه الصفات مع نفي المشابهة عن الخالق ، فأمرّوها كما وردت في النصوص الكريمة ولكن ورد عنهم التأويل ، في بعض النصوص الكريمة ، وذلك لأنه نقل هذا التأويل عن السلف رحمهم الله ، فقد جاءت العشرات من النصوص الكريمة ، التي ظاهرها يوهم التشبيه ، ومنها الوجه[2] فقد ورد في غير آية كريمة ، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾. [البقرة: 115] ، هنا نقل ابن كثير تفسير بعض السلف للوجه بالقبلة ، فالمراد في هذه الآية هو أينما تولوا وجوهكم فثم قبلة الله[3]، ونقل ابن كثير عن ابن جرير قوله: "وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ قَبْلَ أَنْ يَفْرِضَ التَّوَجُّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، وإنما

1- ينظر لمزيد من التفصيل حول التأويل موقف ابن تيمية من الأشاعرة عبد الرحمن بن صالح المحمود 1144 وما بعدها ففيها تفصيل جيد من موقف ابن تيمة من التأويل .

2- نظر لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لعبد الله بن قدامة المقدسي ص: ٤٨ ، كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل لابن خزيمة ص:10.

3- ينظر تفسير ابن كثير 1/271-272

أنزلها لِيُعْلِمَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ، أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاؤوا مِنْ نَوَاحِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، لِأَنَّهُمْ لَا يُوَجِّهُونَ وُجُوهَهُمْ وَجْهًا مِنْ ذَلِكَ وَنَاحِيَةً، إِلَّا كَانَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي ذَلِكَ الْوَجْهِ وَتِلْكَ النَّاحِيَةِ، لِأَنَّ لَهُ تَعَالَى الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ وَأَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى : وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كانُوا [الْمُجَادَلَةِ: 7] ، قَالُوا: ثُمَّ نَسَخَ ذَلِكَ بِالْفَرْضِ الذِي فَرَضَ عَلَيْهِمُ التَّوَجُّهَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ هَكَذَا قَالَ"[1].

ونقل ابن كثير رحمه الله تعالى ، عن السلف أنهم فسروا الوجه بالقبلة .

في قوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص: 88] فيقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة : "وَقَوْلُهُ: كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ الدَّائِمُ الْبَاقِي الْحَيُّ الْقَيُّومُ، الَّذِي تَمُوتُ الْخَلَائِقُ وَلَا يَمُوتُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرام [الرَّحْمَنِ: 26- 27] فَعَبَّرَ بِالْوَجْهِ عَنِ الذَّاتِ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ هَاهُنَا: كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ أَيْ إِلَّا إِيَّاهُ"[2] فأوّل هنا الوجه بالذات مؤيدا في تأويله لجمهرة من العلماء ، ولا بد من الإشارة هنا ، إلى أن هذه الصفة تحديدا لا نجد أن أهل الاثبات اتفقوا على إمرارها ، وإثباتها تبعا لمذهبهم رحمهم الله في إمرار هذه الصفات ، وإثباتها بالوجه الذي يليق به سبحانه وتعالى ، ومن غير مشابهة للمخلوق ، ونفي كل لوازم إثبات هذه الصفات ، والتي يوهم ظاهرها نسبة التجسيم الى الباري سبحانه ، فمنهم من أولها ومنهم من أثبتها وكذا الحال بالنسبة للفريق الثاني الذي يذهب إلى تأويل الصفات ، فمنهم من اثبت الوجه مخالفا ما جرت العادة عنده، من تأويل الصفات الخبرية، وكل صفة يلزم عنها التجسيم[3] .

1- تفسير ابن كثير 272/1

2- تفسير ابن كثير 235/6 -236

3- ينظر لمزيد من التفصيل فتح الباري لابن حجر العسقلاني 388/13 ، شرح النووي لصحيح مسلم 13/3 ، الرد على المريسي نشر علي سامي النشار و عمار جمعة الطالبي 516 ، العقيدة الواسطية لابن تيمية 64 ، مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم 350 ، الصفات الخبرية لمحمد عياش 248 – 249 .

العين :

وردت لفظة العين مفردة ، ومجموعة مضافة إلى الباري سبحانه فوردت في أربعة مواضع من القرآن الكريم ، وهذه المواضع :

﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾. [هود: 37]

﴿فإنك بأعيننا﴾. [الطور: 48]

﴿ولتصبع على عيني﴾. [طه: 39]

﴿تجري بأعيننا ﴾. [القمر: 14]

ذهب جمهور العلماء من المتقدمين والمتأخرين ، من المفسرين وغيرهم من العلماء، إلى تأويلها وهذا الأمر بين ، وواضح في مؤلفاتهم وكتبهم ، ومنهم الإمام المفسر ابن جرير رحمه الله ، في تفسيره ، فإنه أوّلها بمرأى منا ، وأيضا أولها ونرى عملك ، ونقل ذلك رحمه الله عن جمهرة من أئمة السلف [1] .

وممن جنح الى التأويل، الإمام جمال الدين القاسمي رحمه الله ، ففي قوله تعالى: ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾، قال رحمه الله: "أي بحفظنا وكلاءتنا كان معه من الله عزوجل حفاظا وحراسا يكلؤونه بأعينهم"[2].

وفي قوله تعالى: ﴿و لتصنع على عيني﴾ قال رحمه الله: "أي ولتربى بيد العدو على نظري بالحفظ والعناية فعلى استعارة تمثيلية للحفظ والصون"[3].

فواضح وبين من هذه النقولات عن العلماء ، عرف بعضهم بالذهاب الى الإثبات في الصفات الخبرية ، بل التشدد في ذلك ، ومع هذا فإنهم أوّلوا هذه الآيات بالشكل الذي مرّ بنا سابقا .

1- ينظر تفسير الطبري 27-37 .
2- محاسن التأويل للقاسمي 9/118-119
3- المصدر السابق 11/163

وذهب فريق آخر من العلماء ، إلى إثبات هذه الصفة ، وإمرارها كما وردت ، من غير تشبيه ، و لا تمثيل ، و لا تجسيم ، وإنما تمر وتثبت ، بشكل يليق بالباري سبحانه، من غير تكييف ، ومنهم ، الإمام ابن خزيمة رحمه الله[1] وأيضا اثبتها الامام البيهقي رحمه الله فيقول (والذي يدل عليه ظاهر الكتاب والسنة من إثبات العين له صفة لا من الحدقة أولى) [2] .

موقف ابن كثير :

لم يخالف المفسر ابن كثير ، رأي جمهور العلماء في تأويل العين ، وإنما جاء موقفه رحمه الله ، متناسقا ومتناغما مع رأي الجمهور ، فنرى أنه لما فسر قوله تعالى ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾. [هود: 37] نجده قد أوّل العين ، بمرأى منا فقال رحمه الله ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ يَعْنِي السَّفِينَةَ بِأَعْيُنِنا﴾ أي بمرأى منا وَوَحْيِنا أي تعليمنا لك ما تَصْنَعُهُ"[3]. وعند قوله سبحانه وتعالى ﴿ولتصبع على عيني﴾. [طه: 39] نقل عن بعض سلف فقال رحمه الله: "قالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي قَالَ: حَبَّبْتُكَ إِلَى عِبَادِي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي قَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ: تُرَبَّى بِعَيْنِ اللَّهِ وَقَالَ قَتَادَةُ: تُغَذَّى عَلَى عَيْنِي. وَقَالَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي بِحَيْثُ أَرَى، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: يَعْنِي أَجْعَلُهُ فِي بَيْتِ الْمُلْكِ ينعم ويترف، وغذاؤه عِنْدَهُمْ غِذَاءُ الْمُلْكِ فَتِلْكَ الصَّنْعَةُ"[4] .

1- ينظر التوحيد واثبات صفات الرب لابن خزيمة 30 ، 35 وينظر الرد على المريسي نشر علي سامي النشار و عمار جمعة الطالبي 406 .

2- الأسماء والصفات للبيهقي 312 وينظر مقالات الاسلاميين للأشعري 320/1 ، اجتماع الجيوش الاسلامية لابن القيم 118-120 " شرح أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائي (471/3 ،الرسالة الوافية (49 ، الجواب الصحيح لابن تيمية (413/4 ، مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم 66/1 .

3- تفسير ابن كثير 276/4 .

4- تفسير المصدر السابق 250/5 .

وعند قوله تعالى (تجري بأعيننا) [القمر: 14] قال رحمه تعالى: "وَقَوْلُهُ: تَجْرِي بِأَعْيُنِنا أَيْ بِأَمْرِنَا بِمَرْأًى مِنَّا وَتَحْتَ حِفْظِنَا وَكَلَاءَتِنَا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ أَيْ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَانْتِصَارًا لنوح عليه السلام) [1] .

فنراه في هذه الصفة الخبرية ، خالف من اثبت هذه الصفة للباري ، وجنح إلى التأويل ولعل مرده في هذه ، أنه اتبع رأي الجمهور ، ولم يرد أن يخالفهم في هذه ولاسيما أنه لا مناص من الذهاب الى هذا التأويل ، لموافقة النقل والعقل ، فالنقل عن السلف أنهم أولوا العين ، كما ورد سابقا ، والعقل لا يحيل أو يمنع تأويلها بالشكل الذي سبق ، وذلك لأن اللغة العربية تحتمل مثل هذا التأويل ، ولا تمنعه والله اعلم بالصواب .

اليد:

وردت لفظة اليد ، في القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، مفردة و مثنى و جمع ، وكثر الخلاف فيها ، بين من أثبتها مع نفي المشابهة عن الباري ، فإنهم أثبتوا ما اثبته الباري لنفسه ، وما اثبته الرسول صلى الله عليه لربه سبحانه ، وهو الأعلم بالله منا ، أو فوضها للباري ، أو ذهب إلى التأويل ، حماية للعقيدة ، ولكي لا تزل الافكار فتقع في شبهة التجسيم ، وتبعا لذلك فإن الخلاف فيها كان كبيرا ، بين العلماء[2] ، والنصوص القرآنية الكريمة التي ورد فيها لفظة اليد هي :

قوله سبحانه: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾. [الفتح: 10]

قوله سبحانه: ﴿بل يداه مبسوطتان ﴾. [المائدة: 64]

قوله سبحانه: ﴿لما خلقت بيدي﴾. [ص: 75]

قوله سبحانه: ﴿ إنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ﴾. [يس: 77]

قوله سبحانه: ﴿والسماء بيناها بأيد وإنا لموسعون﴾. [الذاريات: 47]

1- المصدر السابق 442/7 .

2- ينظر الصفات الخبرية لمحمد عياش 260 .

ذهب جمهرة من أئمة الدين والعلم ، إلى إثبات اليد كصفة خبرية ، أخبر بها الباري سبحانه في التنزيل ، ولم يكن قاصرا هذا الإثبات على أهل الحديث ، الذين عقدوا أبوابا في مؤلفاتهم ، وألفوا كتبا لإثباتها ، مع تأكيدهم نفي المشابهة عن الباري سبحانه ، وعدم قياسها على صفات المخلوقين ، وإنما تليق به سبحانه ، من غير تشبيه او تكييف 1 فلم يكن إثباتها قاصرا ، على اهل الحديث ، وإنما تعدى ذلك إلى غيرهم ، ومنهم الإمام الأشعري رحمه الله فيقول (وان له يدين بلا كيف كما قال: ﴿خلقت بيدي ﴾ وكما قال: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾.....) [2] .

وألف شيخ الإسلام ابن تيمية ، رسالته المدنية ، والتي خصص جزءا كبيرا منها للحديث عن هذه الصفة ، وجاء موقفه منها متناغما ، مع موقفه ورأيه بالصفات الخبرية ، فاثبتها بالشكل الذي يليق به سبحانه وتعالى ، فاثبتها مع نفي ما يلزم عنها بالذهن [3] .

موقف ابن كثير رحمه الله :

ذهب ابن كثير رحمه الله إلى التأويل ، في هذه الآيات المتعلقة بصفة اليد ، وبذلك يكون قد خالف رأي أهل الإثبات ، في هذه الصفة ولم يذهب إلى رأيهم ، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾. [المائدة: 64] أوّل اليد ، بمعنى البخل والإمساك فقال: "يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ- عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ- بِأَنَّهُمْ وَصَفُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَتَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا بِأَنَّهُ بَخِيلٌ، كَمَا وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ فَقِيرٌ وَهُمْ أغنياء وعبروا عن البخل بأن قالوا يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ" [4].

وعند قوله سبحانه وتعالى: ﴿والسماء بيناها بأيد وإنا لموسعون﴾. [الذاريات: 47] قال ما نصه: "يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى خَلْقِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاها أَيْ جَعَلْنَاهَا سَقْفًا مَحْفُوظًا رَفِيعًا بِأَيْدٍ أَيْ بِقُوَّةٍ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وقَتَادَةُ وَالثَّوْرِيُّ

1- ينظر التوحيد وأثبات صفات الرب لابن خزيمة 37-60 ، الرد على المريسي 384 .
2- مقالات الاسلاميين للأشعري 320/1 وينظر التمهيد للباقلاني 259 .
3- ينظر الرسالة المدنية لابن تيمية 17 .
4- تفسير ابن كثير 133/3 .

وَغَيْرُ وَاحِدٍ" [1] فهنا نراه ، ذهب بعيدا في التأويل ، وكان واضحا وصريحا في التأويل ، ناقلا عن السلف تأويلهم لليد بالقوة ، مخالفا بهذا لأهل الإثبات الذي رفض بعضهم مثل هذه التأويلات .

النفس:

ورد في القرآن الكريم ، جملة من النصوص الكريمة ، فيها إضافة النفس إلى الباري سبحانه وتعالى ومن هذه النصوص قوله سبحانه :

﴿ويحذركم الله نفسه﴾. [آل عمران: 28]

﴿كتب على نفسه الرحمة ﴾. [الأنعام: 12]

﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾. [المائدة: 116]

﴿اصطنعتك لنفسي﴾. [طه: 41]

يكاد يجمع العلماء بمختلف توجهاتهم ، من المحدثين والمفسرين وغيرهم ، على أن المراد من النفس ، الله سبحانه ذاتا وصفاتا ، ويرجح بعض الباحثين ، الخلاف فيها إلى أنه خلاف لفظي وليس غير ذلك [2] .

فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النفس عند جمهور العلماء ، الله نفسه التي هي ذاته المتصفة بصفات ، ليس المراد بها ذات منفكة عن الصفات ، ولا المراد بها صفة للذات " [3] .

وهذا التوجه في تفسير النفس ، نجده عند حتى من تشدد في إثبات الصفات والرد على من تأول الصفات الخبرية ، ومنهم الإمام الدارمي رحمه الله تعالى وموقفه

1- المصدر السابق 395/7 .

2- ينظر الصفات الخبرية لمحمد عياش 299 .

3- مجموع الفتاوى لابن تيمية 552/9 .

الرافض للتأويل ، معروف واشهر من ان ينكر ، يقول رحمه تعالى: "فنفس الله هو الله، والنفس تجمع الصفات كلها"[1] .

الملاحظ أن الخلاف هنا ضيق جدا ، لا يعدو ان يكون خلافا لفظيا ، وينحصر تفسيرها بين من فسرها بانها الذات ، او الوجود ، او غير ذلك مما سبق بيانه .

موقف ابن كثير :

لم يخرج الإمام ابن كثير رحمه الله ، عن رأي جمهور العلماء ، في النفس ، فتأولها بأكثر من معنى ، فعند قوله سبحانه "﴿ويحذركم الله نفسه﴾. آل عمران 28 .

قال رحمه الله: ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي يحذركم نقمته في مخالفته وسطوته وعذابه لِمَنْ وَالَى أَعْدَاءَهُ، وَعَادَى أَوْلِيَاءَهُ. [2] فتأول النفس وفسرها بنقمته .

وعند قوله سبحانه وتعالى: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾. [الأنعام:12] قال رحمه الله: "يُخْبِرُ تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهما، وَأَنَّهُ قَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الرَّحْمَةَ" [3] ففي هذه الآية الكريمة ، وإن لم يصرح ، لكن من الواضح أنه فسر النفس بالذات .

1- الرد على المريسي نشر علي سامي النشار وجمعة طالب 522 وينظر التوحيد واثبات صفات الرب لابن خزيمة 4 ، الارشاد للجويني 44 .

2- تفسير ابن كثير 25/2 .

3- تفسير ابن كثير 217/3 .

خاتمة

السمة البارزة لموقف ابن كثير رحمه الله تعالى من الصفات الخبرية هو ابتعاده عن التأويل فيها والتزام رأي من لم يؤوّل الصفات ومردّ ذلك أن تفسيره يعد من التفاسير بالمأثور، والتى لم تتعرض تعرضاً ظاهراً للمباحث الكلامية التى شغل بها بعض المفسرين كالزمخشري ، أو الفخر الرازي او غيرهم من المفسرين الذين خاضوا في المباحث العقدية وردوا على مخالفيهم ، بل نجد أن الإمام بن كثير رحمه الله تعالى تجنب الخوض في كثير من مسائل العقيدة مثل مسائل القضاء والقدر، والخير والشر، والمنزلة بين المنزلتين، والتحسين والتقبيح العقليين، ومسألة العدل الإلهى، ومسألة إعطاء الثواب وهل يلزم إعطاؤه بالعمل كما هو رأى المعتزلة، أم يجوز إعطاؤه ولو دون عمل أو حجبه عن العبد ولو مع العمل كما هو رأى الأشاعرة من المتكلمين وغير ذلك من المباحث الكلامية التي حفلت بها كتب التفسير والتي وردت عند تفسير العديد من الآيات القرآنية ، بل نجده ينقل رأي من سلف في هذه المباحث من غير تعمق ولا ردّ على المخالفين جريا على نهجه في تفسيره والتزامه التفسير بالمأثور ولهذا لا نجده يفصل او يحقق في رأي المخالفين أو المؤيدين فعلى سبيل المثال في التأويل الصفات الخبرية أو إثباتها بل يذكر راي من سلف ويذكر رأيه من غير تمحيص أو تحقيق وإنما يذكره مجملا من غير تدقيق كما عرف عن أهل الكلام ومن يبحث في مباحث العقيدة الذين اعتادوا ذكر اراء المخالفين والرد عليهم بل نجده خلاف ذلك فلا يدقّق هذه الآراء .

الملاحظ على موقفه من الصفات الخبرية أنّه رحمه الله لم يسلم لرأي شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى بل نجده مال إلى التأويل في بعض الآيات مستدلا بما ورد عن السلف رحمهم الله أنهم اولوها ببعض المعاني التي تحتملها هذه الآيات الكريمة وموقفه هذا واضح من موقفه من الآيات التى فيها ذكر لهذه الصفات الخبرية إذ نجده ينقل أقوال أهل العلم في هذه المسالة مشفوعة بأدلة كل منهم إذا وجد هذا الدليل ثم يرجح من أقوال أهل العلم ما يرى أن الدليل يدعمه أو أن السياق يؤيده ،

وهو في كل ذلك يحترم رأي ، من يخالفه فلا يبدع ، ولا يفسق من يخالفه، رحمه الله تعالى وأجزل المثوبة ونور قبره .

ويوصى الباحث بدراسة آراء ابن كثير رحمه الله في العقائد وذلك لأهمية الفترة التى نشأ فيها ولا سيما أنه تأثر تأثرا كبيرا بمدرسة ابن تيمية رحمه الله وبنفس الوقت لم يكن بعيدا عن باقي المدارس العقدية وتكمن أهمية دراسة منهجه وآرائه في العقيدة أنه اعتمد في جل تفسيره على الأثر ونقل روايات السلف في تفسير القرآن الكريم ولما لهذه الدراسة من أثر عظيم في التقريب بين المدارس العقدية ولا سيما أنه رحمه الله تعالى كان من الشخصيات التى حظيت بالاحترام من قبل المدارس العقدية المختلفة على اختلاف مشاربهم وتنوعها وفي تفسيره متسع لهذه الدراسات ولعله إن كان في العمر بقية فإني سوف أستعين بالله وأدرس في قابل الأيام بعض هذه المسائل بإذنه تعالى .

المصادر والمراجع

1. أبكار الأفكار في أصول الدين للإمام سيف الدين الآمدي، تحقيق: أ. د. أحمد محمد المهدي، مطبعة دار الكتب والآثار القومية بالقاهرة الطبعة الثانية1424 هـ - 2004 م .
2. اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية – ابن قيم الجوزية – تحقيق عواد عبد الله محمد المعتق – الناشر مطابع الفرزدق التجارية – الطبعة الاولى – سنة النشر 1408 هـ 1988 م .
3. الإرشاد الى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد – امام الحرمين الجويني – تحقيق محمد يوسف موسى و على عبد المنعم – مكتبة الخانجى – مصر .
4. الأسماء والصفات لابي بكر البيهقي / علق عليه الشيخ زاهد الكوثري / دار احياء التراث العربي / بيروت .
5. الاعتقاد لمحمد بن محمد ابو الحسين ابن ابي يعلى – تحقيق محمد بن عبد الرحمن الخميس – الناشر دار اطلس الخضراء – تاريخ الطبع 1423 هـ - 2002 الطبعة الاولى ،
6. الاقتصاد في الاعتقاد حجة الاسلام الغزالي – مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر – سنة الطبع 1382 هـ 1962 م .
7. الإمام الشوكاني وآراؤه الاعتقادية في الالهيات بين السلف والزيدية – رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الشريعة جامعة مكة المكرمة – اعداد الطالب سعيد ابراهيم -1406 هـ .
8. إنباء الغمر بأنباء العمر – أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني – تحقيق حسن حبشي الناشر :المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
9. الأنساب: عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى السمعاني المروزي، أبو سعد – تحقيق : عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني – الناشر :مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الطبعة :الأولى، 1382 هـ - 1962 م
10. آيات الصفات بين المؤولة والمفوضة.
11. البداية والنهاية مبدأ الخليقة وقصص الأنبياء للإمام الحافظ المؤرخ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير 701 – 774 هـ -تحقيق وخرج أحاديثه وعلق عليه : د محيي الدين ديب و د علي أبو زيد – راجعه : الشيخ عبد القادر الارناؤوط و الدكتور عواد بشار معروف
12. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع – محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني – الناشر :دار المعرفة – بيروت
13. تأريخ دمشق المؤلف :أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر – تحقيق :عمرو بن غرامة العمروي – الناشر :دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع-سنة الطبع 1415 :هـ - 1995 م

14. التحف فِي مَذَاهِب السّلف – محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني علق عليه وخرج أحاديثه :محمد صبحي حسن حلاق – الناشر :مكتبة ابن تيمية، القاهرة – مصر الطبعة :الأولى، 1415 ه

15. تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب – تحقيق عمر عبد الغني الكبيسي – الطبعة الاولى – تاريخ الطبع 1406 ه – الناشر دار حراء مكة المكرمة .

16. تفسير القران العظيم – ابو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير – تحقيق محمد حسين الشمسي – دار الكتب العلمية بيروت – الطبعة الاولى – 1419 ه .

17. ابن تيمية وقضية التأويل – محمد السيد الجليند– الناشر الأزهرية للتراث – الطبعة الثالثة .

18. جامع البيان في تفسير القران – محمد بن جرير الطبري – دار المعرفة – بيروت – الطبعة الثالثة – سنة الطبع 1978 .

19. درء تعارض العقل والنقل المؤلف – تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلى الدمشقى – تحقيق – الدكتور محمد رشاد سالم – الناشر :جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية – الطبعة :الثانية، 1411 ه – 1991

20. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة – أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني – تحقيق : محمد عبد المعيد ضان –الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر اباد/ الهند – الطبعة: الثانية 1392ه/ 1972م

21. رد على المريسى مطبوع ضمن مجموعة عقائد السلف نشر علي سامي النشار و عمار جمعة الطالبي – مكتبة الاثار السلفية – الاسكندرية – سنة الطبع 1971 م .

22. الرسالة التدمرية تحقيق الاثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع لشيخ الاسلام ابن تيمية تحقيق محمد بن عودة السعودي / شركة العبيكان / الرياض / الطبعة الاولى / تاريخ الطبعة 1405 ه 1985 م .

23. الرسالة المدنية في تحقيق المجاز و الحقيقة في صفات الله تعالى مطبعة الزمان / بغداد / 1989 م .

24. سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، محمد نعيم العرقسوس، مؤسسة بيروت ، ط 10، 1994 ،

25. الشامل في اصول الدين – امام الحرمين الجويني – حققه وقدم له: علي سامي النشار – فيصل بدير عون – شهيد محمد مختار الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية الطبعة: الاولى

26. شذرات الذهب في أخبار من ذهب – عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي – تحقيق – محمود الأرناؤوط – خرج أحاديثه :عبد القادر الأرناؤوط –الناشر :دار ابن كثير، دمشق – بيروت الطبعة :الأولى، 1406 هـ – 1986 م
27. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة واجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم – ابو القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي – تحقيق احمد سعد حمدان .
28. شرح الطحاوية لابن ابي العز – تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي و شعيب الأرناؤوط
29. شرح العقيدة الواسطية – شيخ الاسلام بن تيمية – تحقيق محمد خليل هراس – الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد – الرياض 1407 هـ .
30. صحيح مسلم بشرح النووي دار احياء التراث العربي / بيروت .
31. الصفات الخبرية عند أهل السنة والجماعة الدكتور محمد عياش مطلك الكبيسى
32. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع شمس الدين السخاوي – طبعة دار الحياة بيروت
33. طبقات الشافعية ، عبد الرحيم الأسنوي ، تحقيق كمال يوسف الجوت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط1 ، 1987 ،.
34. طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافي السبكي – تحقيق محمود محمد الطناحي / عبد الفتاح الحلو – الناشر : فيصل عيسى البابي الحلبي – سنة النشر : 1383 هـ 1964 م
35. طبقات الفقهاء لإبراهيم بن على بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي ابو اسحاق
36. علاقة الإثبات بالتفويض بصفات رب العالمين د رضا نعسان ط / 6 لعام 1995 دار الهجرة للنشر والتوزيع / الرياض ،
37. غاية المرام في علم الكلام – سيف الدين الآمدي – تحقيق حسن محمود عبد اللطيف – لجنة احياء التراث الاسلامى – القاهرة – سنة الطبع 1382 هـ 1971 م .
38. فتح القدير للامام الشوكاني – دار الفكر – 1403 هـ 1983 م .
39. الفرق بين الفرق – عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي – بيروت .
40. كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل محمد بن خزيمة ، راجعه وعلق عليه محمد هراس ،ط سنة ١٤١٢ هـ–١٩٩٢م ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان .
41. لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لعبد الله بن قدامة المقدسى ، شرح محمد العثيمين حققه (4 (و خرج أحاديثه أشرف عبد المقصود ، ط٣ سنة ١٤١٥ هـ –١٩٩٥ م ، مكتبة دار طبرية ، مكتبة أضواء السلف .
42. مجموع فتاوى شيخ الاسلام احمد بن تيمية لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الناشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف سنة الطبع 1425 هـ 2004 م .

43. محاسن التأويل – محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي –تحقيق : محمد باسل عيون السود – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة :الأولى – 1418 هـ .
44. مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم – اختصار محمد بن الموصلي – دار الندوة – بيروت – 1405 هـ 1984 م .
45. مدارك التنزيل وحقائق التأويل لعبد الله بن احمد بن محمود النسفي أبو البركات.
46. المسائل الخمسون في أصول الدين تح: أحمد حجازي السقا، دار الجيل بيروت الطبعة الثانية 1410هـ/1990 .
47. معالم التنزيل لابي محمد الحسين بن مسعود البغوي – تحقيق محمد عبد الله النمر و عثمان جمعة ضميرية و سليمان مسلم الحرش – الناشر دار طيبة – سنة الطبع 1409 هـ 1989 م .
48. مفاتيح الغيب للرازي، دار الكتب العلمية – بيروت – 1421هـ – 2000 م .
49. مقالات الإسلاميين – أبو الحسن الأشعري – تحقيق محيي الدين عبد الحميد – دار الحداثة – الطبعة الثانية – سنة الطبعة 1405 هـ 1985 م .
50. موقف ابن تيمية من الأشاعرة – الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود – مكتبة الرشد – الرياض – سنة الطبع 1415 هـ 1995 م – الطبعة الأولى .
51. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين – الناشر :وزارة الثقافة والإرشاد القومي – دار الكتب، مصر
52. وفيات الأعيان وأنباء وأبناء الزمان لأحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان 608 هـ 680 هـ تحقيق إحسان عباس / الناشر : دار صادر – بيروت / سنة النشر : 1972 م .